

الطبيعة و الثقافة

المبحث السابع من القسم الثالث في كتاب Cultural Geography
ستيف هنشليف

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

لطالما اهتم الجغرافيون بالانقسامات والعلاقات بين الطبيعة والثقافات . غالبًا ما يعمل الجغرافيون عند نقاط العبور بين هذين المجالين ، وقد أخذوا زمام المبادرة في زعزعة الفجوة بين ما يسمى بالطبيعة وما يسمى بالثقافة . إذا نجحت جغرافية الثقافة في زعزعة استقرار أي شعور بوجود طبيعة نقية غير مغشوشة ، فعندئذٍ تبقى لدينا مشكلة . هل يعني هذا أنه لا يوجد غير الثقافة؟ **هل كل شيء ثقافي؟ ألا يتبقى شيء للطبيعة؟** الإجابة عن كل هذه الأسئلة هي "نعم" و "لا" . "نعم" ، بمعنى أنه لا يوجد لجوء إلى طبيعة مطلقة وغير مشروطة وعالمية (سواء كانت طبيعة أولى أو طبيعة ثانية ، ينظر (Whatmore 1999) للقوانين والخصائص . "لا" ، بمعنى أن الثقافة لا يمكن أن تكون إطارًا مستهلكًا بالكامل لا يتأثر بأعمال البشر وغير البشر ، الذين يتصرفون بطرق قد تكون تركت مجالًا أو خارج الحديقة أو إبداعية . لقد اعتدنا على الشعور بأن الثقافات غير محددة ، وهي قيد المعالجة ، وتأثيرات الأفعال بقدر ما هي أسبابها (ميتشل 1995) أحد أهداف هذا المقال هو تقديم الإطار نفسه لما اعتدنا على تسميته "بالطبيعة" . سأتابع هذا الهدف من خلال قصة واحدة ، والتي تأتي من التعامل مع علوم المختبرات ، قبل رسم بعض الملاحظات الأوسع .

طبيعة أم ثقافة؟

سكرابي هو مرض يصيب الأغنام ويتوطن في بعض الأماكن منذ أكثر من 200 عام . يصنف على أنه اعتلال دماغي إسفنجي معدي ، وهو تصنيف يشترك فيه مع اعتلال الدماغ الإسفنجي البقري (BSE) ومرض كروتزفيلد جاكوب البشري (CJD). تم إجراء هذه التصنيفات إلى حد كبير على أساس الأعراض المرئية ، حيث أنه على مدار القرن الماضي ، لم يُعرف سوى القليل جدًا عن أسباب المرض (بخلاف ، كما يوحي اسم التصنيف ، يمكن أن ينتقل من حيوان إلى آخر). على مدار القرن العشرين ، بحث الناس عبثًا عن بكتيريا ، لأسباب وراثية ، عن جين يجعل المضيفين أكثر عرضة للإصابة ، و- ما بدا أنه أكثر العوامل احتمالية - فيروس سكرابي (Keyes 1999a، 1999b). يتضمن البحث عن فيروس مجموعة كاملة من القصص والممارسات والتقنيات والحيوانات والأشخاص . كلمة واحدة لوصف هذا ستكون عبارة عن تجميع ، تجميع علم الفيروسات . التجميع هو مصطلح مأخوذ من Deleuze and Guattari (1988) ويشترك في شيء ما مع خطاب المصطلح Foucauldian الذي يستخدم على نطاق واسع في جغرافية الثقافة (Foucault 1970). ومع ذلك ، فإن ميزة التجميع تتمثل في كونه أقل بقليل من السلوكيات والأنشطة الانضباطية وأكثر ارتباطًا بتمكين الآخرين من الظهور من خلال الممارسة (قانون 2004) عند التعامل مع طبيعة الثقافة ، يتمتع التجميع بميزة السماح لجميع الأطراف ، سواء كانت تقارير علمية أو ميكروبات أو أشخاصًا ، بإمكانية تغيير مسار الأحداث . بالمقارنة مع بعض إصدارات الخطاب ، فهو أقل تقييدًا لكل من ما يمكن فعله وما يمكن معرفته . غالبًا ما تكون النتيجة النهائية لهذا التجميع الناجح بشكل ملحوظ عبارة عن فيروس - حزمة منفصلة متكررة من الحمض النووي يمكن نقلها من كائن حي مضيف إلى آخر ، وتمكن من الاستمرار في عملها المتمثل في التكاثر وربما اعتمادًا على ذلك . قضايا ملاءمة الكائن الحي (أو عدم ملاءمته) ، مما يسبب صعوبات أو مرض العائلة .

سؤال في هذه المرحلة ، للمهتمين بالطبيعة / الثقافة ، هو: هل هذه النتيجة النهائية (الفيروس) موجودة قبل علم الفيروسات ، ينظر Latour 1999 ؟ إذا كانت الطبيعة مساحة موجودة مسبقًا ومحدودة ، فيجب أن تكون

الإجابة "نعم". في لغة الاستكشاف ، يتم اكتشاف الفيروسات ، ولكن ، إذا كان الفيروس هو نتاج تجميع علم الفيروسات فقط ، فإن إجابتنا ستكون "لا". **تم اختراع الفيروسات كوسيلة لشرح المرض** . وهناك إجابة أخرى ، ربما تكون أكثر إرضاءً ، وهي أن الاكتشاف والاختراع هما مجرد وسيلتين لتخصيص خصائص خاصة لأي من الطبيعة أو الثقافة . وبالتالي ، هناك طريقة أخرى للنظر في ذلك وهي اقتراح أنه عندما بدأ العلماء في التفاعل مع الفيروسات ، لم يتغير العلم فحسب ، بل تغيرت الفيروسات أيضًا . تعودنا هذه الفكرة في جغرافية الثقافة . يتم تذكيرنا بأن هويتنا علائقية وليست مجرد نتاج تكويننا الداخلي (Pile and Thrift 1995) نادراً ما يترك الاكتشاف المكتشفين دون تغيير من خلال التجربة . (Driver 2001) يجب دفع هذه

المعاملة أيضًا لغير البشر ، بما في ذلك الحيوانات ، ينظر (Latour 1999) والآلات . (Hinchliffe 1996 and Bingham 1996) بهذا المعنى ، فإن أقطاب الطبيعة والثقافة غير كافية لفهمنا تاريخ العلم وتاريخ الميكروبات (لاتور 1999 ، 146) . يصعب التعبير عن هذا بلغة مجردة ، لذلك ، من أجل فهم نشاط تجمعات الميكروبات ، يمكننا الاستمرار في قصة سكرابي .

في مثال Scrapie ، لم تنجح الأمور تمامًا كما كان يأمل علماء الفيروسات . عندما تم عزل المواد ذات التركيزات الأعلى من العدوى ، كانت العملية التي من شأنها ، في تخصص علم الفيروسات ، أن تؤدي إلى فيروس "نقي" ، كان هناك شيئًا مفقودًا . على عكس الإعداد الخطابي ، كان مخطط النسخ ، الحمض النووي ، غائبًا على ما يبدو عن المواد المعدية المنتجة في المختبر . بدون هذا ، كان من الصعب تخيل (في إطار علم الفيروسات) كيف يمكن للميكروب أن ينقل التعليمات اللازمة لإنتاج تأثيرات اعتلال الدماغ من كائن حي إلى آخر . هناك مشكلتان أرغب في استبعادهما من هذه القصة عن كائن تجريبي سيء التصرف .

أولاً ، الكائن الذي تحقق لم يكن كما هو متوقع . لم يكن العلماء مسيطرين على نظامهم التجريبي . ولكن ، مثلما أدى ذلك بالبعث إلى مواصلة البحث عن الفيروس المراهق أو أي كيان آخر يحمل الحمض النووي ، بدأ آخرون في الاستماع والشعور والعمل بإجراءات للتفاعل مع هذه المواد بطرق تجاوزت الإطار الاستطراذي . في الواقع ، كانت القدرة على الاستماع إلى غموض الشيء المعرفي (Rheinberger 1997) ، أو موضوع البحث المفترض ، هو شرط إمكانية المعرفة الجديدة . العلماء لم يزوروا أو يدعموا ، بدلاً من ذلك ، كانوا يتلاعبون ، ويتفاعلون مع الأجهزة والمواد من جميع الأنواع ، والكتابة والتفكير ... طريقة أخرى لقول ذلك هي أن التجارب كانت موضوعية - ولكن ليس بمعنى اكتشاف ، دون إعاقة إيديولوجية الثقافة ، صنع حقيقي فوق الطبيعة . وبدلاً من ذلك ، فإن هؤلاء العلماء الذين أداروا التجارب بحيث يمكن إشراك مادة مادية مختلفة كانوا موضوعيين بمعنى أنهم سمحوا للمواد المعدية بالاعتراض على القصص التي قيلت عنها (ينظر Latour 2001a) . كانت ثقافة علم الفيروسات مهمة ، ولكن ليس لمجرد أنها شكلت التجارب ؛ كان مهمًا لأنه أيضًا كان يتغير نتيجة لسلسلة كاملة من الإجراءات والتفاعلات التي يقوم بها العلماء والجهاز - وليس آخرًا - المواد المعدية . **علم الفيروسات (الثقافة) لن يكون هو نفسه مرة أخرى** .

ثانيًا ، لا ينبغي الافتراض أنه نظرًا لأن البحث كان موضوعيًا (السماح للأشياء التجريبية بالاعتراض على القصص التي تم سردها عنها) ، يمكننا أن نلجأ إلى كائن طبيعي واحد من أجل شرح المسار التجريبي . في حين أنه من الصحيح أن نقول إن الأشياء التجريبية لم تكن شيئًا (لم تكن سيئة الحظ ، أو مواد عديمة الشكل ، أو حتى ضحايا أزياء في انتظار أن يعطيها عالم الفيروسات أي شكل قديم) ، لا أريد أن أعطي الانطباع بأن هذه المواد معدية كانت المواد كائنات طبيعية (تم تشكيلها بالفعل و الشيء نفسه أينما ذهبوا أو في أي وقت) . بعبارة أخرى ، في حين أنه من الخطأ القول إن هذه المواد المعدية تم إنشاؤها ثقافيًا ، سيكون من الخطأ أيضًا القول إنها كانت اجتماعية - خاصة إذا كان مصطلح "اجتماعي" يفهم على أنه قدرة على الارتباط . في الواقع ، إذا فهمنا الطبيعة على أنها اجتماعية ، فإن أهميتها بالنسبة للنظام التجريبي - وكما اتضح أن التواصل الاجتماعي الأقل ترحيبًا عبر حدود الأنواع ومن خلال نظام صناعي - زراعي - يصبح من السهل تخيله . تمامًا كما أن علم الفيروسات لن يكون هو نفسه مرة أخرى ، كذلك الحال مع هذه الميكروبات المعدية غير الفيروسية . كان تاريخهم يتغير أيضًا حيث تفاعلوا مع مصنعي الأعلاف والأبقار والقطط والأشخاص

والسياسيين والوزارات وحدائق الحيوان وامتيازات البرجر والشراكات التجارية وما إلى ذلك (ينظر Hinchliffe 2001). ربما من الجدير بالذكر أيضًا أن هذه التواريخ قد تمت كتابتها بالفعل في تجربة كانت أكبر من تلك التي تجري في المختبرات (ينظر Latour 2001b). كانت التجربة الجماعية التي أُطلق عليها ، بشكل مختلف ، نظام إنتاج الغذاء الزراعي - الصناعي قد ساعد بالفعل في توفير الظروف الممكنة لتواريخ مختلفة لهذه الميكروبات - ولا شك في أنها ردت الجميل ، بمعنى **أن نظام الغذاء أيضًا قد لا يكون هو نفسه مرة أخرى** (شيء اكتشفته الكائنات المعدلة وراثيًا على حساب تكلفتها).

أخيرًا ، مع تشكل هذه العوامل المعدية الجديدة في المختبرات وفي نظامنا الغذائي ، **لن تعود الطبيعة كما كانت مرة أخرى** . أصبح من الممكن الآن الحديث عن نقل المعلومات (انتقال المرض) في غياب الحمض النووي DNA أو RNA . باختصار ، بدأت النظريات الراسخة للفاعلية البيولوجية في التغيير (Keyes 1999b). إذا قلنا ، حتى الآن ، أن مثالنا عن المرض لا يمكن اختزاله في الثقافة ولا إلى الطبيعة ، فماذا نقول عن الثقافات والطبيعة ؟ أول شيء يجب قوله هو أنهم لم يعودوا يسكنون مناطق معينة أو مناطق مختلفة (Braun and Castree 1998). **إن تواريخهم ومناطقهم الجغرافية أكثر تشابكًا ، مما يعني أنه مع تغير الثقافة تتغير الطبيعة أيضًا ، وتتغير الطبيعة أيضًا مع تغير الثقافات** . ثانيًا ، هذه العلاقة المتبادلة بعيدة كل البعد عن كونها علاقة يمكننا وصفها بأنها محددة بطريقة أو بأخرى . **الثقافة لا تحدد الطبيعة** (علم الفيروسات لم يشكل عامل سكرابي) ، **لكن الطبيعة أيضًا لا تحدد الثقافة** (عامل سكرابي لم يشكل العلم) . لذلك ، ربما لا يُنظر إلى الثقافات والطبائع بشكل مفيد ، في هذه الحالة ، على أنها مجموعات فرعية من بعضها البعض . كما أنه ليس من المنطقي أن نقول إن الطبيعة غير محددة بالثقافة ، أو العكس . لأن القيام بذلك ، كما ذكرنا برونو لاتور ، سيكرر الاتجاه للتخصيص بين ما يقوله البشر وما يفعله بقية العالم (Latour 2001a).

إذا لم تتمكن من فهم المواد المختبرية على أنها إما ثقافة أو واحدة من الطبيعة ، فهناك احتمال آخر وهو تخيل أنها منتج ومشارك في شبكة حيوية . بدلاً من افتراض أن عنصرًا واحدًا من جميع العناصر التي تم تجميعها في هذا المختبر أكثر أهمية من جميع العناصر الأخرى (ثم تخصيص الخصائص الطبيعية أو الثقافية لذلك العنصر) ، يمكننا التركيز على العلاقات والتفاعلات التي تشكل المواد المعدية والعلماء والتقارير والتمويل وما إلى ذلك . سيكون هذا النهج والطوبولوجيا مألوفين لأولئك الذين استخدموا نظرية شبكة الممثلين (ANT) لدحض التحركات التحليلية للعلوم الاجتماعية التقليدية ، ينظر ، على سبيل المثال ، Callon and Law 1995 ، وبالنسبة لهذا النهج المطبق على الحياة البرية ، ينظر Whatmore and ثورن 1998 . بدلاً من تخصيص خصائص لمساحة محددة (سواء كانت مساحة الميكروب أو فضاء علم الفيروسات) ، فإن المهمة هي تتبع إنتاج العلاقات ، وتجميع الإمبراطوريات التي لا يمكن اختزالها إلى أجزائها المكونة لها (وبالتالي غير قابلة للاختزال للثقافة أو طبيعة).

يجدر بنا أن ننتهي من خلال تعزيز نقطة تم طرحها في البداية . اعتدنا في جغرافية الثقافة على الحديث عن ثقافات متعددة ، وأنها قيد المعالجة وغير محددة . غالبًا ما يُترجم هذا في السياسة إلى حساسية تجاه التنوع ، ووجهات نظر مختلفة ، والتنافس وحتى للصراعات (Mouffe 2000). إن مد الإطراء نفسه إلى الطبيعة عملية مشحونة ، وإن كانت حيوية ؛ محفوف بالمخاطر لأننا اعتدنا على أن الطبيعة (بصيغة المفرد) هي حجر الأساس الذي يوحد كل هذه الثقافات (Latour 2001b). يمكن أن يكون التوحيد في شكل مناقشة للجوانب المشتركة لطبيعتنا ("نحن جميعًا ، في نهاية المطاف ، بشر"). يمكن أن يكون مناقشة لاعتماد مشترك على رأس المال الطبيعي (كما في الطريقة الثالثة ، سياسة الإجماع لأنتوني جيدينز [1998] - ينظر فيذرستون 2001). أو يمكن أن تشكل الطبيعة الحكم الخارجي في الشؤون الثقافية ("الطبيعة أعلم" - وهي أخلاق تسكن الكثير من التفكير البيئي). إذا تم فك قيود الطبيعة من هذا الإرساء التأسيسي ، فقد تضع من الناحية السياسية بعض الحقائق المؤكدة القديمة . لكن تعددية الطبيعة أمر حيوي إذا أردنا تجنب الاختصار في العملية السياسية الواجبة التي تصاحب مناقشات الطبيعة الاجتماعية (لاتور 2004). يرى لاتور أن طبيعة اللا ثقافة لا يمكن أن "تستخدم لتجديد السياسة ، لأنها أقدم وسيلة تم ابتكارها لعرقلة السياسة" (Latour 2001b ، 6). مناقشة القاعدة

العالمية للطبيعة مشكلة شائعة للسياسات الثقافية . هذا معروف جيداً للجغرافيين الذين بحثوا في ثقافات وطبيعة الأنظمة الشمولية وحتى المحافظة (Matless 1999) ، وثقافات وطبيعة العرق والجنس (Rose 1993) ، (Buckingham-Hatfield 2000) وحتى ثقافات وطبيعة ' حركة العبوات الجديدة ' وهي الحفاظ على الطبيعة الدولية (ينظر Escobar 1995 و Zimmerer 2000). يكشف كل منها عن طبيعة فريدة من نوعها لكونها عنصرًا مشكوكًا فيه للغاية ومناهضة للديمقراطية في النضال من أجل ابتكار طرقًا أفضل للعيش . ما يزال هناك تحد كبير أمام جغرافية الثقافة لإثبات مؤانسة الطبيعة دون اختزال البشر وغير البشر ، الأحياء وغير الأحياء ، إلى أتباع الموضة الثقافية .

KEY REFERENCES

- Braun, B. and Castree, N. eds. 1998. *Remaking Reality: Nature at the Millennium*. London, Routledge.
Latour, B. 1999. *Pandora's hope: Essays on the reality of science studies*. Cambridge, Mass., Harvard University Press.
Latour, B. 2004. *Politics of Nature: How to bring the sciences into democracy*. Cambridge, Mass., Harvard University Press.
Whatmore, S. 2002. *Hybrid Geographies*. London, Sage.

OTHER REFERENCES

- Bingham, N. 1996. Object-ions: from technological determinism towards geographies of relations, *Environment and Planning D: Society and Space*, 14: 635–658. Buckingham-Hatfield, S.
2000. *Gender and the Environment*. New York, Routledge. Callon, M. and Law, J. 1995. Agency and the Hybrid Collectif, *The South Atlantic Quarterly*, 94: 481–507.
Deleuze, G. and Guattari, F. 1998. *A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia*. London, Athlone.
Driver, F. 2001. *Geography Militant: Cultures of Exploration and Empire*. Oxford, Blackwell.
Escobar, A. 1995. *Encountering Development: The Making and the Unmaking of the Third World*. Princeton, NJ, Princeton University Press.
Featherstone, D. 2001. *Spatiality, Political Identities and the Environmentalism of the Poor*. Unpublished Ph.D. thesis. Milton Keynes, Open University.
Foucault, M. 1970. *The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences*. London, Tavistock.
Giddens, A. 1998. *The Third Way: The Renewal of Social Democracy*. Cambridge, Polity.
Hinchliffe, S. 1996. Technology, power and space – the means and ends of geographies of technology, *Environment and Planning D: Society and Space*, 14: 659–682.
Hinchliffe, S. 2001. Indeterminacy in-decisions: science, politics and policy in the BSE crisis, *Transactions of the Institute of British Geographers*, 26, 2: 182–204.
Keyes, M.A. 1999a. The prion challenge to the 'Central Dogma' of Molecular Biology, 1965–1991, (part I) Prelude to prions, *Studies in the History and Philosophy of Biology and Biomedical Sciences*, 30, 1: 1–19.
Keyes, M.A. 1999b. The prion challenge to the 'Central Dogma' of Molecular Biology, 1965–1991 (part II) The problem with prions, *Studies in the History and Philosophy of Biology and Biomedical Sciences*, 30, 2: 181–218.
Latour, B. 2001a. *Good and Bad Science: The Stengers – Desprest Falsification Principle*. www.ensmp.fr/~latour/Articles/77-BERG.html.
Latour, B. 2001b. *What Rules of Method for the New Socio-scientific Experiments?* Paper presented at the Darmstadt Colloquium, 30 March (Mimeo available from the author at www.ensmp.fr/~latour/artpop/P-95%20Darmstadt.html.)
Law, J. 2004. *After Method: Mess in social science research*. London, Routledge.
Matless, D. 1999. *Landscape and Englishness*. London, Reaktion.
Mitchell, D. 1995. There's no such thing as culture: towards a reconceptualisation of the idea of culture in geography, *Transactions of the Institute of British Geographers*, 20: 102–116.
Mouffe, C. 2000. *The Democratic Paradox*. London, Verso.
Philo, C. and Wilbert, C. eds. 2000. *Animal Spaces, Beastly Places: New Geographies of Human–Animal Relations*. London, Routledge.
Pile, S. and Thrift, N. eds. 1995. *Mapping the Subject*. London, Routledge. Rheinberger, H. J. 1997. *Towards a History of Epistemic Things: Synthesizing Proteins in the Test Tube*. Stanford, Stanford University Press.

Rose, G. 1993. *Feminism and Geography: The Limits of Geographical Knowledge*. Cambridge, Polity.

Whatmore, S. 1999. Hybrid geographies: rethinking the human in human geography, in D. Massey, J. Allen and P. Sarre eds. *Human Geography Today*. Cambridge, Polity, 22–40.

Whatmore, S. and Thorne, L. 1998. Wild(er)ness: reconfiguring the geographies of wildlife, *Transactions of the Institute of British Geographers*, 23, 4: 435–454.

Wolch, J. and Emel, J. eds. (1998). *Animal Geographies*. London, Verso.

Zimmerer, K. S. 2000. The reworking of conservation geographies: nonequilibrium landscapes and nature-society hybrids, *Annals of the Association of American Geographers*, 90, 2: 356–369.